سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (26)

مجموع من بعض رسائل

أبي عبد الله محمد بن الحضرمي

رحمه الله تعالى

(663-711 هـ)

تقديم وتحقيق: د. إدريس العلوي البلغيثي

بسم الله الرحمان الرحيم

*توطئة :

غير خاف في مجال البحث في التراثي ما " للمجاميع العامة"، التي تحمل في طياتها مجموعات شتى في ضروب العلوم والآداب، من اهمية كبرى، حيث يجد فيها الباحثون بغيتهم في كشف الجديد من النصوص التي يشتغلون بموضوعاتها ، ويفيدون منها افادات جمة ، وقد يعثرون اثناء عملية الكشف عن نوادر وذخائر في اكمل ضورة واتمها، او منقوصة بسبب ما أصابها من بتر او اعتراها من تلاش في عدد من اوراقها بفعل الروطوبة ، او تاكل بافة الارضة –الحشرة الخبيثة- التي تاتي على الابيض والاسود ، وبرغم هذا كله ، فانها تحظى بكامل اهتمامهم وعنايتهم ، فينكبون عليها بشغف شديد، راغبين في اخراجها لجمهور المثقفين ،

باذلين في سبيل ذلك جهودا جهيدة ، مكتوبة لهم-ان شاء الله تعالى- في صحيفة الحسنات .

وتحمل هذه " المجاميع " ضمن محتوياتها —في غالب الاحيان —اسامي المجموعات التي حرص جامعوها على جمعها وتدوينها لحفظها في خزاناتهم ، واتخاذها مصادر عامة يرجعون اليها الفينة للاستعانة بها في دراساتهم.

وتحتفظ الخزانات العامة والخاصة بوطننا العزيزبالعديد من المجاميع العامة، تنتظر من ينفض عنها ما تراكم عليها من غبار السنون ، يتعهدها بالعناية الفائقة لنشرها والتعريف باصحابها الابرار.

وان التفكير الجاد والخالص في انشاء مراكز للبحث التراثي في الحواضر الكبرى لبلادنا سيساعد —بلا مراء — الباحثين ، المدعمين بالوسائل الحديثة والامكانات المادية الكافية ، على كشف ذخائر هذا النوع من تراثنا التليد، الذي يعد بحق من اهم مقوماتنا الحضارية،التي تمثل أصلتنا، والتي يجب بكل اخلاص احياؤها وبعثها ، والافادة من دررها النفيسة التي

تزين بها جيد الزمان ردحا طويلا ، والله الموفق لما فيه الخير العميم لهذه البلاد العريقة في المجد ولشعبها الشهم الأصيل.

تحليل المجموع:

ورد في مجموعة من الصحائف " لجامع مجهول"، مجموع من بعض رسائل الكاتب البارع صاحب القلم الاعلى، واحد رواد فن الترسيل في الغرب الإسلامي " أبي عبد الله محمد بن الحضرمي السبتي"(663-711هـ).

وهي من المخطوطات الهامة التي تحتفظ بها خزانة العلامة المؤرخ المرحوم بكرم الله " سيدي محمد المنوني "- جزاه الله عن العلم والعلماء الجزاء الاوفى-وقد تفضل كعادته بإعارته الى قصد الانتفاع بها في دراساتي لمجاميع فن الترسيل في الغرب الإسلامي.

بعقيدة الشيخ سيدي " سعيد بن عبد النعيم الحاحي"(1-6) ، وتنتهي بشرح على البردة لسيدي " محمد بن عبد الله البكري الفاسي" (926-966).

وهي محفوظة في كتاب ضخم يقع في : 966 صفحة، مقياسه: 19/14،

ومسطرته :22 مكتوب بخط مغربي جيد بالاحمر والاسود.

والكتاب عار من اسم الجامع ، وتاريخ عملية الجمع، او الفراغ منها .

ويبتدئ من خلال محتويات الكتاب برمته حرص الجامع الشديد على جمع وتدوين كل ما تحصل لديه مما يفيد القارئ وينفع الدارس علميا وادبيا.

ويأتي مجموع ترسيل الكاتب المجيد " ابن الحضرمي " ضمن هذه المجموعة للغاية المتوخاة نفسها، وهي المنفعة الادبية المنشودة من طرف المتأدبين المهتمين بفن الترسيل .

وقد استهله الجامع " بالبسملة " و" التصلية":

" بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وسلم".

واختار له العنوان الاتي :

" من بعض رسائل أبي عبد الله محمد بن الحضرمي رحمه الله تعالى وغفر لنا وله".

ويحتوي المجموع على ابابين هما : الرفوعات ([1]) والتهاني ، ويتكونان من اربعة عشر فصلا، موزعة بهذا الشكل : ستة فصول بالباب الأول ، وثمانية فصول بالباب الثاني.

وتتنوع صيغ الخطاب للحضرة ،والتفنن في الصفات التي خلعها الكاتب عليها، وفي الادعية التي خصها بها. كما تتنوع فصول " التهاني " في المجموع ، فهي مرتبة على الصورة التالية:

*تهنئة العيد ،

*والتهنئة بالولاية،

*والتهنئة بالحاج،

*والتهنئة بالجهاد،

*والنكاح،

*والزواج،

*والولد،

---

[1] يقصد بها ما يرفع الى السلطان ، والمصدر فيه (الرفعان) بالضم .

*والابنة،

وتفنن الكاتب في فواتح وخواتم هذه الرسائل الدعائية، والتحية والسلام، مع مراعات جانب الاقتضاب.

وقد حافظ على اسماء المكتوب إليهم وعنهم، وذكر الاماكن والتواريخ باستعمال أسلوب الكناية كفلان وفلانةن والعبيد ، او العبد المسترق ، وفي شهر كذا ، وعام كذا ، وهو ما يؤكد لنا ان وكد الكاتب كان هو التلقين لقواعد فن الترسيل وأصوله العامة ، والتدريب على منهاجه القويم، لاكتساب الحنكة والدراية.

والملاحظ ان الكاتب عني في هذا المنهاج بالفواتح والخواتم وما يرتبط من ادعية تستمد جوهرها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وتستند في اسليبها الى علوم البلاغة الثلاثة : المعاني ، والبيان، والبديع.

وقد حكم الكاتب ضمن التانق البديعي اللفظي سلطان السجع في جميع الفواتح والخواتم لهذه الرسائل بنوعيها لا : " الاخوانية" و" السلطانية"،

وابدى براعته فيه، والتفنن في اسليبه المختلفة دونما تكلف او تمحل الى ما جاء عفو الخاطر.

واستعمل اللغة الفصيحة في هذه الفواتح والخواتم ملتزم بسلامة التعبير ، وفخامة الالفاظ ونصاعتها.

وقد سجل المؤرخ الاستاذ سيدي " محمد المنوني " –رحمه الله تعالى- هذه الظاهرة بقوله [2] " ومما يسجل لهذه الفترة ان الادب المغربي كان –في لغته العربية الفصحى –لا يزال يحتفظ باصالة لفتت اليه انظار الاندلسيين بالخصوص".

واورد ما افاده " ابو اسحاق الشاطبي" عن صاحبه الكاتب ابي عبد الله ابن زمرك " اثر ايابه الى وطنه من رحلة العدوة، وذلك في كتابه " الإفادات والانشادات " : " واخبرني ان كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ويذمون ما عداها من طرق " المولدين "، وانها خارجة عن الفصاحة "واكد الاستاذ " المنوني "، في نفس الصفحة، استمرار هذه

---

[2] "ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين"، ص: 258.

الظاهرة في أدباء المغرب، موردا لقولة الشيخ " محمد بيرم التونسي" في الجزء الاول من " صفوة الاعتبار " ص: 61 ، اواخر القرن التاسع عشر، ونصها :" ولعمري ان صناعة الانشاء في الدول باللغة العربية كادت الان ان تكون مقصورة على " دولة مراكش" ، واما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتابتهم ان تخرج عن الاسلوب العربي، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن ...بخلاف كتاب المغرب، وهذا ديدنهم من قديم.

وراعى في هذه النماذج جانب المناسبات الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، التي انشئت فيها، والتي تقتضي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ويغلب على هذه المناسبات في تعددها وتنوعها الطابع الديني، فضلا عن الطابع الوجداني، ويمثل تمازجها الاتجاه الفني الرفيع.

ويتسع مجال الكتابة في باب التهاني، الذي يعد من اهم الابواب في فن الترسيل، وبالاخص في لون " الاخوانيات"، وفد اجاد الكاتب " ابن

الحضرمي" وابدع في انواع هذا الباب، وابان عن قدراته الفنية الجمة ومواهبه الفذة.

ولما كان هذا المجموع من المختصرات التي لا تحتاج الى اختصار، فقد اثرت ايراد نصه الكامل للاطلاع عليه والانتفاع به في مجال النثر الفني عامة والترسيل خاصة.

ولتسهيل عملية تتبعه قمت بترتيبه وترقيمه، مصححا الاخطاء والتصحيفات التي وردت فيه، راجبا من الله التوفيق والسداد .وهذا نصه [3]

هذه بعض النماذج من ترسيل الكاتب البارع "الحضرمي السبتي" في السلطانيات والاخوانيات ، اتبع في ايرادها طريقة الايجاز التي تسعف الكتاب الناشئين والمبتدئين على تعلم "فن الترسيل"، واستيعاب طرقه وتحصيل قواعده، ليرتقوا مدارجه ويتسنموا ذروة علاه، ويصيروا اعلاما في الوانه المختلفة وينتظموا في سلك كتاب الدواوين ، ويحظوا بتقدير الخاصة

---

[3] ص:888-894.

واحترام العامة ، وهو ما يطمح ف تحقيق بغيته ونيل مراده اكثرهم رغبة وممارسة للكتابة.

ويظل " هذا المجموع" الطريف في فن " الترسيل" ، من ذخائر التراث الادبي في الغرب الاسلامي وهو ما يعكس بوضوح بعض مظاهر تطور النثر الفني في هذا الجناح من العالم العربي الاسلامي وما تميز به " فن الترسيل" بالخصوص من خصائص موضوعية وفنية ، وعلى ايدي امثال الكاتب البارع " ابي عبد الله الحضرمي" احد شيوخ الكتابة بالمغرب في نهاية عصر الموحدين وبداية عصر المرينيين، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد واله وسلم.

من بعض رسائل ابي عبد الله محمد بن الخضرمي رحمه الله تعالى وغفر لنا وله.

أ- فصل في الرفوعات:

-"حضرمة العلية، المباركة الميمونة ،بسط الله انوارها ، واعلى منارها ، وايدها بنصره، وامدها بمعونته ويسره،ملتزم طاعتها وخدمتها، المتشرف بحقها وحرمتها، المنتظم([4]) في سلك امرها ودعوتها.

[4] وردت مصحفة:"المنتهم".

عبدها فلان ابن فلان، ثم تذكر حاجتك، ثم تدعو وتسلم، اما الدعاء فهو: والله تعالى يعينكم على طرد المظالم، وانصاف المظلوم من الظالم، والسلام الاعلى على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى وبركاته".

2- "الحضرة الامامية المكرمة"، ([5]) المطهرة المشرفة المعظمة، حضرة مولانا امير المؤمنين ابن مولانا امير المومنين مهدها الله،ووصل اعزاز نصرها بالدوام ، على مر الشهور والاعوام، كما اسبغ فواصل الاتها على الاوام.

عبيدها الامنون في ظلالها، المستندون ([6]) الى حلالها، المبتهجون بظهورها وإقبالها، اهل بلد كذا، ثم يذكر حاجتهم، والدعاء: والله يمتع

---

[5] وردت هكذا :"مكرومة"، على غير صيغة (مفع).

[6] وردت هكذا:" مكرومة"، على غير صيغة (مفع).

ملك الحضرة السامية تمتيعا، ويجعلها للأمة كهفا منيعا، ونفاعا شامخا وريعا. والتحية المباركة على الحضرة المطهرة ورحمة الله تعالى وبركاته.

3- "الحضرة الامامية المكرمة العلية قطب الآمال ([7]) ومدارها، ومسمى الهمم ومنارها، ومأوى الفضائل وقرارها، وتاج العلوم ومرارها، التي ملأت البلاد أمنا ويمنا، ووسعت الأمة فضلا ومنا، أدام الله حفظها وكرامتها، وأبقى يمنها وبركتها، وفتح لها البلاد اختيارا واضطرارا، وأعاد لها الأعداء أولياء وأنصارا.

---

[7] صحيح تصحيفها: المتسندون.

عبيدها الراجون بركتها التي هي ملتقى السمع ومرأى لعيان أهل بلد كذا، ثم يذكر ([8]) حاجتهم، ومثلكم لا يوهن من نصره المظلوم، ولا يطمع في خيفة المهضوم.والسلام على الحضرة العلية ورحمة الله تعالى وبركاته.

4- "الحضرة المباركة المهيبة الميمونة السنية المطهرة العلية،ادام الله ايامها وقرن بالنصر والسعد اعلامها، واعمد في جميع الاعداء سنانها وحسامها ،كما جعلها رباط الملة ([9]) ونظامها .وعبدها المستغيث الى اجلالها، المعول على عدلها وافضالها، رجل من موضع كذا، ثم تذكر حاجته .ومثلكم يوثر الحق ايثارا، ويعتقده علما ومنارا .والسلام على الحضرة العلية ورحمة الله تعالى وبركاته" .

---

[8] جاءت مصحفة هكذا : يذكروا .

[9] كتبت بدون حذف تنوين الاضافة :" رباطا لملة" .

5-كتاب للسلطان:" المقام الكريم المؤيد الطاهر الأعلى، الظاهر الاسعد الارقى، الجليل المعظم المرفع الاسمى ، الاوحد المطاع الازكى،مولانا ابو فلان ابن فلان مولانا امير المسلمين، وناصرالدين وقاهر اعداء الله المشركين، المؤيد المنصور المقدس المرحوم أبي فلان (وصل الله تعالى في سماء)([10])المجد علاهم،وابقى في عز دائم وسعد بقاهم .عبد مقامكم الكريم، ومملوك فضلهم الجسيم، فلان بن فلان، سلام كريم طيب مبارك عميم يخص مقامكم الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته" .

---

[10] وردت هكذا : وصلى الله تعالى في الاسماء.

6-"وبعد حمدا لله تعالى الذي يفعل الجميل مع اهله، والصلاة المباركة على سيدنا ومولانا محمد الذي تشرفت هذه الأمة من اجله، والدعاء لمولانا امير المومنين بفتح (**11**) قريب نصر به من فضله، فكتبه العبد المسترق، المملوك المستحق –كتب الله تعالى لحضرتكم العلية سعدا مؤبدا ، ونصرا مجددا-من مدينة كذا-حرسها الله تعالى-ولا معترف بيمين الله سبحانه وبركة مقامكم الكريم –خلده الله تعالى- الا كل خير عميم ، وفضل جسيم-والحمدلله رب العالمين كثيرا .

والعبد على اوله في التزام الخدمة، والقيام بشكر النعمة، قد شمر عن ساعد الجد والاجتهاد، باقصى العائد والمراد، والله تعالى بنهضه في الخدمة لبابكم الكريم بالواجب، ويعينه على أداء (**12**) ما تعين عليه من الحقوق الواجبة، والفروض المعينة، ويديم أيام مولانا وينصر أعلامه بمنه، والسلام الكريم

---

[11] امحاء حرف الحاء

[12] سقوط الألف.

الطيب المبارك العميم يخص الحضرة العلية ورحمة الله تعالى وبركاته .كتب شهر كذا عام كذا" .

ب- التهاني:

7- فصل في تهنئة العيد :" هنأكم الله الفصول والأعياد، وهيأ لكم المأمول والمراد، وأعاد عليكم امثالكم ، واعاد عليكم امثالها في تمام من الامال، ودوام من الانبال، وإسعاد من الزمان، وتعظيم الامر والشأن، ولم أقدم بعد حق الله علي الا حقكم لدي في التهنئة بالعيد السعيد واليوم الجميل نظما ونثرا ،وخطابا وشعرا ، ولوددت انى اشهد فاشكر، واحمد فانشر وبعد،

عرفكم الله بركة هذا العيد، واليوم المبارك الجديد، وتقبل منكم في الشهر الراحل الصيام، وجمع اعمالكم من الصلاة والقيام ، وأنا لكم من آمالكم غاياتها، ومن أمانيكم نهاياتها، وألف لكم بين تصاريف الاقدار وعوارض الاوطان ولا اعدمكم فيه الدعاء المستجاب، والثناء المستطاب،(**13**) وطهر قلبكم من الذنوب، وازال عنكم الخطايا والحوب، وبلغك الله يا أخي املك،وزكى قولك وعملك، وتقبل القربان، وبذلك في عليين الدرجة والمكان، وابقاك في سعد وسرور ، ودعة ورزق،موفور، بمنه" .

8- تهنئة وال**:** (**14**)" طلعت علي البشرى بولايتكم التي اسندت اليكم،وعزم فيها عليكم،طلوع الهلال وقت الارتقاب،ووقعت لدي المسرة موقع البرء من

---

[13] امحاء حرف السين.

[14] وردت مضافة بدون تنوين(والي).

الاوصاب،وقد عاد القضاء الى نصابه،ورجع الى من يفتح بابه، فدعوت الله تعالى ان يشد ازركم على هذا المعنى الحميد، والتقديم المبارك السعيد،واختلفت بالشكر له على ما خطر به المسلمون من فضلكم الذي اشتهر في جميع البلاد،وعزكم الذي لا يستفزه الهوى ولا يفارقه السداد والرشاد، وعملكم الذي يقر لكم بالتقدم فيه الحاضر والبلاد فأكثروا من الشكر لله تعالى في كل ناد، والسلام عليكم معاد" .

9- تهنئة الحاج:" بلغني صدرك من الوجهة الكريمة السعيدة، والسعاية المباركة الحميدة، فانبسط الأمل، وانحشد الجدل، وسألت الله الذي أوفدك بيته الحرام، وعمر بك مشاهدة الكرام، وردك سالما، وصرفك غانما، ان يهنئك ما وهب لك، ويبلغك مرادك ومذهبك، وان ينفع الالح دعائك من لم

يعرفك ومن محبك، ويجعله لك حجا مبرورا، وسعيا مشكورا، ولكل ذنب طهورا، بمنه".

10- تهنئة الجهاد: " وصلني بأخي رجوعك من الجهاد سالما ظافرا غانما إلى الاهل والاولاد، فافاض ذلك على خاطري ابتهاجا وارتحابا، واهوى الى املي انبساطا ونفساحا، وسالت الله تعالى الذي من بك على اولياءك، و... (15) بودك وصفائك، ان يتقبل جهادك، وينيلك بغيتك ومرادك، حتى يسكنك جنات عدن مع المجاهدين، كما وعد في سورة الحواريين، (16) بمنه".

---

[15] محو بمقدار كلمة ولعلها " خصني".

[16] يقصد ما ذكروا في سورة ال عمران، الاية 53

11- تهنئة نكاح:" وصلني يا اخي –وصل الله لك الجدل-ما كان بينك وبين فلان من المصاهرة ، والالفة والمعاشرة ، فوافق ذلك مذهبي ، ووصلت به املي ومطلبي ، فانتهت الافراح لدي منتهاها، ونالت نفسي مشتهاها ، وسالت الله تعالى ان يجعله في وقت خير وسعود ، وعلى اتم الحود ، وان تكون من الولود والودود، بمنه" .

12- تهنئة الزواج: وصلني يا اخي كتابكم الكريم، تذكرن انكم عزمتم على تزويج فلانة بنت فلان، والزواج مما يحيي الله به الأنساب، ويقوي به الأسباب، ويوكل به الحرمات ،ويجدد به المكرمات فامضوا ما قد عزمتم عليه، وبادروا مسرعين اليه.قال سيد المرسلين:" من تزوج فقد استكمل نصف الدين

" جعله الله زواج (**17**) خير وقربة وغبطة، وحسن عشرة وصحبة (**18**) بمنه" .

13- تهنئة بولد :" وعلي الخبر الذي استهلت به النفس فرحا، وتهلل به الوجه مرحا، بطلوع الولد المبارك المسعود، والسلالة الزكية والفرع المحمود، الذي زاد ف عدد الكرام، وتبسمت بطلوعه ثغور الأيام، واهتز بهبته روض المجد والجود ، وأينع به كل مخضر من العود ، وتمهدت له اكناف المآثر، وأضاءت به افاق المحامد والمفاخر، وثبت به اساس الرفعة والنفاسة، وزاد في مواثيق العقل والرئاسة، فلله هو لقد ابان جوهره واعرب، فواها له فلقد كرم اصله وانجب .فدعوت الله تعالى ان يجعل طلوعه في اسعد السعود، ومن اصحاب

[17] سقوط نقطة الزاي.

[18] وردت مصحفة :" صحته"

البحوث والجود، وطلا يرمي على البلاد ، وسيلا يحيي على الانجاد، وان لا تزال سبل الامال معمورة اليه، وحلل المحاسن منشورة عليه، ويجعله الله بارا تقيا ، موفقا مهديا ، مسدودا عليا، ميمونا رضيا، وان يتمم شبابه ، ولا يريكم مصابه، بمنه".

14- تهنئة بابنة:" وصل الي كتابكم بطلوع الابنة المولودة، المباركة بيمين الله المسعودة، ولئن كانت قد طلعت مكان البدر الشمس، فالجسم وان كان كثيفا (**19**) مذكرا (**20**) فاشرق منه الشمس، وهذه على تانيثها السماء لا تضاهيها في عظم الجرم واللطافة، وحسبكم ما روي عن النبي بقوله:" من

---

[19] سقوط نقطة الزاي.

[20] كتبت بالدال المهملة.

ابتلى من هذه البنات بشيء فاحسن اليهن كن سترا من النار "، إلى ما جاء عنه عليه السلام في الاثار الواردة انه قال :" حبوا البنات فاني ابوا البنات" .

وحشاكم ان تكونوا من الذين قال الله فيهم (**21**) العظيم:

﴿واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ﴾جعلها الله تعالى عليكم من اسعد البنات، ولا اضلاكم واياها من عميم المسرات ، بيمينه" .

انتهى ما قيل من رسائل " ابي عبد الله الحضرمي" بحمد الله وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا اثيرا .

---

[21] وردت: بهم.